بين الأبعاد

(قصة) محمد أحمد الناغى
بورسعيد -٢٠١٢

انتابت (سامر) سعادة طاغية وهو يتأمل أخيرًا اكتمال إختراعه، نظر إلى جهازه الذي في حجم الحاسوب اللوحي، وإن كان ليس بمثل سُمكهِ، رفعه بكلتا يديه ثم وضعه في حرص فوق ميزان رقميّ «٦,٦ كيلو جرام.. لا بأس كمحاولة أولى»، تمتم سامر في سعادة وهو يسجل الوزن في مفكرته الإلكترونية، سجَّل السُمك : «ثلاثون سنتيمترا» ، حدق في مؤشرات الجهاز في شغف، للأسف لم تسعفه إمكاناته سوى بعمل مؤشرات متوازية، وليست رقمية، تفقّد سماعات الرأس للمرة الأخيرة محدثًا نفسه يسترجع فكرة اختراعه: « من المعروف أن الأذن ليست مطلقة السمع، بل هي مرهونة بالعمل بين الذبذبات: من ٢٠ إلى ٢٠٠٠٠ ذبذبة في الثانية، هذا هو الحيز الذي تستطيع فيه الأذن البشرية التقاط الأصوات، ما فوق، أو دون ذلك؛ نعجز عن إدراكه. أي أن الأذن البشرية لا تدرك إلا احد عشر سلّما ونصف من أصل بلايين السلالم الصوتية. وكذا بالنسبة للعين البشرية، لا تستطيع التقاط الصور إلا داخل حيز محدد لاهتزاز ذرات الأجسام، ما دون ذلك وما فوقه، لا ندركه..»، تفقد عوينات ضخمة يحيطها إطار من المعدن، فيما تنبثق من جانبها الأيمن حزمة من الأسلاك تنتهي إلى الجهاز الشبيه بالحاسوب اللوحي، وضع ثلاث بطاريات ليثيوم، أخذها من هواتفه المحمولة، داخل مكانها في جهازه، قال لنفسه: «مرحى سامر ، أخيرا انتهيت من جهازك الذي سيُمكنا من رؤية العوالم الأخرى التي تعجز حواسنا عن الوصول إليها.. ستتمكن من السماع والرؤية». وابتسم في غبطة. غيَر منامته في عَجَلة، صفف شعره الأسود الفاحم في غير عناية، فنعومته تغنيه عن ذلك، وضع سماعات الرأس والعوينات ذات الإطار المعدنيّ في مكانهما المحدد بجهازه، نزل إلى الشارع في عجلة فلم يلحظ والدته التي كانت تـُلمعِ الثريا العتيقة بجوار الباب.

وهو على الدرج تذكر مقولة أستاذه في الفيزياء، بالمرحلة الثانوية: «أنت يا سامر فتى نابغة، الدائرة الكهربية الصوتية التي صنعتها يعجز خريجي الهندسة عن صنعها بمثل هذا الإتقان، أتنبأ لك بمستقبل باهر». شعر بشوق شديد كي يهرع إليه ويريه اختراعه، ولكن « لا، تمهل يا سامر، لقد تعلمت في كلية الهندسة قسم كهرباء أن الاجتهاد نصف طريق النجاح، و التأني هو النصف الآخر» حدّث سامر نفسه. لم يرد تجربة الجهاز بمنزله، بل قرر تجربته بمعمل كلية الهندسة، بجامعة عين شمس، لقد عُـيّـن بها معيدًا، ولا زال الأساتذة يتحدثون عن رسالة الماجيستير التي نالها بامتياز مع مرتبة الشرف، كان موضوعها «كيفية تسجيل الذبذبات الصوتية دون، وفوق مستوى الإدراك البشريّ، ومن ثم تحويلها إلى الحيز الذي تستطيع الأذن البشرية سماعه. لقد استطاع إثبات ذلك نظريًا في رسالته، اليوم فقط ظفر بإثبات ذلك عمليا. هو يحتاج شهود على نجاح الجهاز قبل تسجيله باسمه، وأساتذة القسم هم خير من يمثل ذلك، هم الآن بانتظاره بمعمل الكهرباء بالكلية. «ولكن ماذا لو فشل الجهاز؟!» ، توقف بغتة فكاد أن يفقد توازنه، لقد أنسته لهفته وثقته بنفسه أن يجرب الجهاز تجربة ميدانية، نظر إلى بوابة سكنه التي تبعد فقط دقيقتين «هل أعود؟.. «، فكر سامر، «حسنا، ولم لا أجرب هنا؟.. ، حسم أمره وذهب ليحتمي من شمس الظهيرة ليجلس إلى مظلة خرسانية وُضِعت على الرصيف كمقعد انتظار عموميّ.

أخرج الجهاز الذي أنفق عليه كافة مدخراته في حرص، وضع السماعتين الكبيرتين فوق أذنيه، أدار مؤشر تشغيل الجهاز حابسًا أنفاسه، سمع أصوات متداخلة كالتشويش.. ، قوَّس حاجبيه وهو يعيد ضبط حيز الترددات المُراد، مر تلميذين بالمرحلة الابتدائية أمامه وهما يرمقانه في غرابة ثم ركضا ضاحكين، لم ينتبه إليهما، سجلت شاشة جهازه وجود أصوات في الحيز الذي اختاره، أدخل المعطيات الكفيلة بتسجيلها ثم تحويلها إلى التردد المسموع، الفكرة بتبسيط مُخل تشبه إلى حد ما فكرة المحول الكهربائي التقليدي، صدحت أصوات أكثر وضوحا في أذنيه فاعتدل وقد اشتعلت كافة حواسه، التقط أصوات تشبه نظيرتها لدى القبائل الإفريقية.. نظر حوله في حيرة، كما لو توقع أن يجد إحداها في الجوار، رفع السماعات عن

أذنيه فلم يجد تلك الصيحات التي تشبه ما يُنشَد في الأدغال ، أعادها إلى أذنيه فعاد يسمعها في وضوح، «على الأقل الجهاز التقط أصواتًا»، قال لنفسه بوجه عابس، حاول أن يتبين منها شيئًا لكنها كانت أقرب للصيحات منها للتعابير، زفر في غير حماس، شعر بالخجل من نظرات المارة إليه، برغم الضيق ارتدي عوينات الرؤية، كانت تغوص في إطار معدنيّ، في منتصفه كاميرا حاسوب شخصي عادية، ببعض التعديلات أضاف إليها مستشعر رؤية يعمل بالأشعة تحت الحمراء، هو فقط عدّل تردد الأشعة لتعمل في الحيز الذي يريده، فباتت تنقل ما تراه إلى جهازه، ثم بعد المعالجة يُعيد إليه الجهاز الرؤية إلى العوينات مباشرة. لقد بدأت العمل، لثوان شعر بزغللة تجتاحه، ازدوجت الرؤية فظن بعينيه حول.. أسبل جفنيه في قوة برهة ثم أعاد فتحهما، شعر بالزغللة ذاتها، ثمة لون أصفر باهت يظلل الأشياء، بدت الرؤية شبيهة إلى حد ما بنظيرتها عند ارتداء النظارات المخصصة لرؤية الأفلام ثلاثية الأبعاد.. رفع العوينات عن عيناه في تأفف، فيما عملت يداه على إعادة ضبط إحداثيات الرؤية. تسلل لأنفه عبير جميل آخاذ، رفع رأسه بحركة عفوية، فألفى مرور فتاة متبرجة صارخة الجمال تحاول استيقاف سيارة أجرة، لا تبعد عنه أكثر من ثلاثة أمتار، حاول العودة لجهازه لكن ثمة خاطر ما ألح عليه بقوة أن يعيد النظر إليها.. تحديدًا نحو مفاتنها المكورة المشدودة. بوجه عابس رفع وجهه وراح يتأمل فستان الفتاة الذي يصل للأرض لكنه مشدود على جسمها وكأنه جزء من جلدها، شرد وهو يحملق في مفاتنها التي أتاحتها للجميع.. استسلم كما لم يفعل من قبل.. شعر بدبيب الشهوة يضج في عروقه، اندهش من الرغبة العاتية والتصورات التي عبقت نفسه بغتة، نفض رأسه في قوة، ثم بحركة مباغتة أنهى وضع إحداثيات الرؤية وبحركة سريعة وضع العوينات فوق عيناه، تشوشت الصورة لحظات، قاوم الإحساس بالحَوَل محاولا التركيز لتبين أي شئ.. فجأة ارتد للخلف في فزع، انطلقت شهقة من فمه برغمه، فجوار الفتاه مباشرة، نقلت له العوينات هذه المرة صورة مهتزة لعدة مخلوقات رهيبة المنظر، كانت تدعو المارة بكلام ما فيما تشير نحو فتاة، أسرع بنزع العوينات عن عيناه فلم ير شيئا، اختفت المسوخ بغتة، فقط الفتاة بمفردها لا زالت تحاول استيقاف سيارة أجرة، وضع

Obeikan.com

السماعتين فوق أذنيه في عجلة ، ثم أمسك الجهاز وهو يتأكد من إحداثياته، وضع العوينات وقلبه يخفق في قوة، انتفض ثانية كما لو أصابه مس كهربائي، رأى المسوخ ثانية جوار الفتاة وهم يشيرون إليها كأنما يعرضون بضاعة، شاهد أفواههم تتحرك كما لو كانوا يتحدثون بلغة ما، ركز مع الأصوات التي تنقلها السماعة، كانت كأصوات صوصوة الفئران، أسرعت أصابعه تحول مؤشر محول الأصوات ليُعدل التردد.. لمح أحد المسوخ يحدق إليه مباشرة ،يداه تشير للفتاة كمن يحاول ترغيبه إلى شيء ما، شعر سامر بتقلص معدته كأنما سيتقيأ حالًا، بدا أن المخلوق انتبه لشيء ما، اقترب من الفتى بحركة ناعمة سريعة، بدا للفتى وكأنما المخلوق في تحركه لا يخضع للجاذبية.. وقف المخلوق مشوه الخلقة أمامه مباشرة وهو يتموج كالدخان، تجمد سامر.. حملق به المسخ لحظات وهو يحرك جناحيه في حركات غير منتظمة، بُرهة ولاحظ أن عينا الفتى تتابعان جناحيه، افتر ثغره البشع عن ضحكة متوحشة، والتمعت نظرة عابثة في عيناه الدميمتين، اقترب المخلوق منه حتى كادت شعيرات وجهه تلامس وجه الفتى.. تكلم المسخ كلامًا ما.. نقلت السماعات أصواتًا خشنة مخيفة، وإن لم يتبين سامر مغزاها، ارتسمت نظرة شرسة متوحشة في عينا المخلوق دميم الخِلقة، وضع يده فجأة فوق كتف الفتى، انتفض سامر وبدء يهتز كما لو كان يعاني من الصرع جراء التلامس ، دوى صوت رهيب النبرات داخل رأسه بغتة .. «إذاً أنت تراني.. هذا غريب، لعل هذا الشيء بين يديك هو ما أتاح لك ذلك» ، كانت العينان تتلاقيان الآن، حملق المخلوق فيه باهتمام، شعر الفتى أن أنفاسه توقفت مع قلبه بينما المخلوق يواصل: (.. نحن لا نتواصل معكم إلا ذهنيًا أيها الطينيّ الساذج).

وبغتة، وبلا سابق إنذار ؛ صرخ المخلوق في وجهه صرخةً متوحشة هائلة...

شعر الفتى بروحه تنسحب منه كما لو كانت تبحث عن مكان للاختباء، شعور بالهول تغشّاه، برودة عاتية مرقت جوار صدغيه..

ما زال المخلوق يصرخ..

وفيما توقفت سيارة أجرة للفتاة المتبرجة، تهاوى الفتي على وجهه فاقدًا الوعي؛ لتتحطم أجهزته في دوي عنيف..

* * *

«هل أنت متأكدة سيدتي من عدم تعرضه لأية ضغوط مؤخرًا؟..» سأل طبيب الأعصاب بلهجة مشفقة.

أجابت والدة الفتى وهي تكفكف دموعها الغزيرة :

-على العكس تمامًا، لقد كان في أعلى معنوياته، خاصة بعد ان انتهى من أحد اختراعاته التي يعمل عليها، لقد لمحته ينزل متلهفاً لدرجة أنه لم يقبّل جبهتي كعادته كلما خرج.

ترك الطبيب القلم قائلًا في اهتمام: «ولدك مخترع إذن..» ، ونظر إلى فودي الشاب ذي الخمسة والعشرون عاما، اللذين غزاهما الشيب عن آخرهما، مردفا في خفوت: «هكذا هم العباقرة..»، ونقل بصره بين الأم البائسة، وابنها الذي يحملق في الفراغ، ثم تنهد وهو يقف قائلًا: «فلتحمدي الله سيدتي أنه لم يجن، فقط صدمة عصبية مجهولة المصدر، أعقبها فقدان ذاكرة ؛ بمشيئة الله لن تطول..».

وعندما غادر الطبيب الحجرة، لم يلتفت أحد لمخلوق رهيب المنظر، لا يبدو أنه يخضع للجاذبية، انساب إلى الغرفة في نعومة، وفي عيناه نظرة شريرة.. وعابثة..

obeikan.com